الذاكرة والتاريخ

إبراهيم بوطالب

كثر الحديث في العقود الأخيرة بين علماء الفلسفة والتاريخ والاجتماع عن الذاكرة وصلتها بالتاريخ. فهل هما من طينة واحدة لعنايتهما برفع النقاب عن الماضي على اعتبار أن الذكريات إنما هي وقوف على التاريخ بالتقسيط، وأن التاريخ إنما هو وقوف على الذكريات بالإجمال؟ أم هما من جنسين مختلفين؟ ولولا ذلك لما وسما باسمين متباينين في معظم اللغات. فالذكرى إحساس ذاتي وانفعال قد يخرج بهما الخيال إلى ما لا يمت إلى الواقع بصلة. بينما التاريخ صناعة مضبوطة الأسلوب والقواعد، غاية أربابها ذكر ما جرى واستخراج أسباب الوقائع ومسبباتها. وإن دل تعارض هذين القولين على شيء، فإنما يدل على قيام صلات الذاكرة بالتاريخ على بعض الألغاز التي تستلزم شيئا من البحث والتحليل. وسنقف فيما يلي على جوانب الصواب من قول من يقول إن الذاكرة والتاريخ من جنس واحد، ونذكر قول من يرى أنهما متباينين متفاوتين في الدلالة والمعنى، قبل أن نعرض لأسباب العناية بهذه الجدلية في وقتنا هذا ومغربنا هذا.

مظاهر التجانس بين الذاكرة والتاريخ

1. التذكر والتعقل والتفكر

يبدو من أول وهلة أن لا فرق بين الذاكرة والتاريخ. فالذاكرة عماد التاريخ، والتاريخ ديوان الذاكرة. وما مثلهما إلا كمثل الماء والثلج، والهواء والريح، والشجرة والخشب، والمفرد والجمع. ولا أدل على ذلك من ورود لفظ "ذكر" في القرآن في مختلف صيغه. ففي سورة "ص" على سبيل المثال لا الحصر، قال الله عز وجل: **﴿ ص والقرآن ذي الذكر﴾** (آية 1). وقال:**﴿ أءنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري ﴾** (آية 7). ثم قال: **﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾**(آية 16). ثم قال:**﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾**

(آية 31). وجاء فيها أيضا:﴿ **رحمة منا وذكرى لأولي الألباب** ﴾ (آية 42). وفيها:﴿ **واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب**﴾ (آية 44)، وبعدها:﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار**﴾ (آية 45). وآخر ما ورد من هذا المفهوم في هذه السورة قوله عز من قائل:﴿ **هذا ذكر**﴾ (آية 48). ولو أردنا أن نقف على كل الآيات التي ورد فيها لفظ ذكر، لتجاوزنا حدود هذا البحث المقتضب. ويكفي أن نقول إنه ورد أيضا بكثرة في التراث، وتأتي به اللغات الأوربية على شكلZAKHOR الذي هو واضح التجانس اللغوي مع فعل ذكر العربي. وغني عن البيان أن هذا اللفظ في السياق القرآني مشحون بالمعاني، يستوقفنا منها في هذا المستوي من البحث المعنى الأول لفعل الذكر الذي هو حفظ ما جرى واستحضاره عند الحاجة، بناء على قول الشاعر:

فأبلغ دريدا وأنت أمرؤ متى ما تذكّره يستذكر

لكن المثير للانتباه في القرآن أن التذكر يأتي مرادفا للفظين آخرين هما التعقل والتفكر. فكثيرا ما نقرأ: ﴿**أفلا تتذكرون**﴾ (السجدة،3) بمعنى: ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾(غافر،7)، أو بمعنى التفكر في مثل قوله عز وجل: ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ (الجاثية،12). ويلفت النظر في هذه المصطلحات الثلاثة أنها تجعل التذكر من باب التفكر والتفكر من باب التعقل. وهل لغة القرآن إلا لغة العموم، التي تقول تفكرت الشيء وعقلته أو عقلت عليه، بمعنى تذكرته. ونادرا ما تستعمل العامة هذه الكلمة بمعناها. مما نستخلص منه أن التذكر سبيل التفكر، وأنه من المحال أن يفكر أو يتعقل من لا يستطيع التذكر. وحيث إن التاريخ إنما هو خزان الذاكرة، فإنهما كلاهما من مقومات الفكر والعقل، ومما شرف الله به الإنسان على باقي الحيوانات التي يمكن أن تتذكر، ولكن لا يمكن أن تتعقل أو تتفكر. ولذلك فإن الكتب المنزلة كلها كتب قصص وتاريخ.

2. الذاكرة والتاريخ من حيث الموضوع

إن موضوع التاريخ بصفة كونه خزان الذاكرة، هو ضبط ما جرى في الماضي. قال ابن خلدون:"فإن فن التاريخ فن من الفنون التي تتداولها- الأمم والأجيال، وتشدّ إليها الركاب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والإغفال، وتتنافس فيه الملوك والأفيال، ويتساوى في

فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق"[1].

وقال مؤسس الكتابة في التاريخ، وهو أول من استعمل مصطلح Historia هيرودوطوس Herodotos اليوناني، في مطلع كتابه:"يعرض هيرودوطوس الهالكرناسي فيما يلي لنتائج ما أجرى من الأبحاث حتى لا يعفي الزمان على ما أنجزه البشر، وحتى لا يطوي النسيان ما قام به من الأعمال الجليلة اليونان وكذلك العجم. وإنه ليبسط القول بوجه خاص في أسباب الحروب التي اندلعت بين هذين الشعبين "[2]. أما ثوكوديديس Thukydidès فهو أول من سن سنة ما نسميه اليوم بالتاريخ الآني Histoire immédiate، فإنه قال في مستهل كتابه عن حرب البيلوبنيسيوس ما يلي:" إن تاريخ الحرب بين أهل البيلوبنيسيوس وأهل أثينا، من إنشاء توكوديديس الآثيني. فقد اشتغل بهذا العمل منذ المناوشات الأولى، إدراكا منه بأن هذه الحرب ستكون من الحروب الكبرى، وأنه سيكون لها من المضاعفات ما لم يكن للنزاعات السابقة. وقد تنبأ بذلك لعلمه بما صار عليه أطراف النزاع من العظمة في كل مجال لحظة دخولهم الحرب، ولأنه رأى من جهة أخرى أن باقي العالم اليوناني انحاز إما لهذا الجانب وإما للجانب الآخر. ومن لم ينحز في الحين، فإنه كان يستعد للانحياز. فتحول النزاع إلى أزمة زعزعت اليونان وقسما من بلاد العجم من الأركان بما لم يسبق له نظير، بحيث يجوز القول بأن جل من على وجه الأرض من البشر تأثروا بمفعول ذلك "[3].

فالتاريخ إذن إما استقصاء لأخبار غابرة في الزمان وفي المكان، مثلما هو الحال مع هيرودوطوس، وإما هو تسجيل للذاكرة الحية بحسب ما يختزن فيها، مثل القصة الحية تصف ما يشاهد بالعيان أو بالاستخبار المباشر على غرار ما فعل توكوديديس الذي حالت

(1) ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج. 1، ص. 350

(2) Hérodote, Historiens grecs, Pléiade, pp.51-52

(3) Thucydide, Historiens grecs ,Pléiade, p. 693

الوفاة سنة 411 (ق.م.) بينه وبين متابعة ماجريات الحرب بين أثينا واسبارطا التي لم تنته إلا في مطلع القرن الرابع (ق.م.). ويجمع ابن خلدون في مجالنا المغاربي الإسلامي بين الأمرين، فهو يكتب عن أمم العرب والبربر منذ ظهورها في التاريخ واستيطانها في إفريقيا الشمالية. لكنه يرمي من وراء ذلك أصلا إلى تسجيل ما وقف عليه من أحداث عصره وما بدا فيه من مظاهر الوهن والتآكل.

3. الذاكرة والتاريخ من حيث الزمان

لا يكفي القول بأن الذاكرة والتاريخ يشتغلان بحقل واحد، وهو الماضي، لنتخلص مما تحت ذلك من المسائل، إذ ما معنى الماضي؟ وإذا كان للماضي وجود، فلماذا نهتم به كل هذا الاهتمام؟ وإذا اهتممنا به، فكيف نقف عليه؟ وتلك أسئلة معقدة يجمع بينها مسألة الزمان والديمومة اللذين لا مفر من العناية بتحديد معانيهما. ولا نريد الخوض في إشكالية الزمان بكل تفاصيلها، فهي من القضايا الشائكة، ولا برهان عليها في العقل بالملموس، وإنما يجتهد فيها الفلاسفة منذ أقدم العصور. ولكل واحد منهم فيها نظر. ولنا أن نستخلص من ذلك أن الزمان إنما هو مصطلح لا بد له من العقل الحي ليتم إدراكه، أو هو من المعطيات المسبقة غير المبنية لا على إحساس ولا على تجربة كما قال كانط[4] (Kant). وإذا استقصينا قديس عنابة أوغوستنوس Saint-Augustin، فإن الزمان عنده امتداد للروح distentio animi، بمعنى أنه لا وجود إلا للحاضر، وأن الحاضر ثلاثي الوجه، فهناك حاضر الحاضر، ومن بين يديه حاضر المستقبل، ومن خلفه حاضر الماضي. بحيث لا ندرك من الزمان إلا اللحظة الحاضرة، حين نحن نتكلم أو نقوم بعمل. أما الماضي وأما المستقبل فلا سبيل إلى تلمسهما إلا بالاستحضار. وهل الاستحضار إلا حاضر أو حضور[5]، فنفهم من ذلك أن بعدين أساسين من الزمان هما الماضي والمستقبل، لا نتأولهما إلا من خلال غربال الحاضر. وذلك ما أقام عليه فيلسوف القرن العشرين مارتين هايدكير Heidegger نظريته عن الزمان[6]، التي لا يعنينا من مدلهماتها إلا إبرازه للبعد المستقبلي في الزمان، على اعتبار أنه البعد المولد للبعدين

(4) Kant, Critique de la raison pure, Paris, PUF, 1944

(5) Saint-Augustin, Confessions, Garnier, Liv.IX

(6) Heidegger, L'être et le temps, Gallimard

الآخرين. ذلك بأن الإحساس بالزمان، يأتينا مما نهتم به من كون الموت فرضا علينا، فينشأ عن ذلك قلق Sorge يحملنا على السعي في شيء من الديمومة، فنجعل لأنفسنا بداية، ونجعل لها محطات، ونترصد لذلك أشد ما يمكن من الأرصاد الثابتة. ولا نستطيع الزحف نحو المستقبل المحتوم إلا بالاعتماد على بعض ما نقف عليه أونقيمه من ثوابت الماضي. ومن اللافت للنظر أن آخر فلسفة علمانية عن" الكائن والزمان"، تلتقي من جديد مع فلسفة الذكر الحكيم، وهو ذكر الله عز وجل في كل وقت وحين، لما في ذلك من استحضار السوابق واللواحق، لأن الله هو البداية، ولأن الرجوع إليه هو الغاية والنهاية."وما يتذكر إلا من ينيب"(غافر،7). لكن الإشارة إلى الجوانب الميتافيزقية من الذاكرة لا تغنينا عن البحث في طبيعتها السيكولوجية.

4 . شكل الذاكرة

يرى علماء النفس وفي طليعتهم السويسري بيير جاني Pierre Janet، أن عملية التذكار تأتي على مستويين، مستوى أولي الذي هو الفعل المجرد من كل سابقة ولاحقة، فكأنه وقع خارج الزمان، أو أنه مجرد لحظة زمنية معيشة لم نفكر فيها حتى نعقل. ومستوى ثانوي الذي يكون التذكار فيه فعلا ممتدا في الزمان، له علاقة بما سبق وصلة بما يلحق، أو منطلق ومؤدى، أو ممهدات وخلاصات، فيكون التذكار عقلا بالضرورة. ودليل ذلك في رأي جاني: "أن الوقوع في الصرع لا يرسو بالذاكرة مهما بلغ من التعقيد، وليس ذلك لأنه معقد، ولكن لأن المصروع لم يقم بعملية التذكار، فكأنه أصيب بالبله أثناء الهذيان"[7]. ويضيف جاني، مفندا مزاعم الفرنسي بيركسن Bergson بأن الإنسان المنعزل له ذكريات، قائلا:"إنني لا أشاطر هذا الرأي، ذلك بأن الإنسان المنعزل لا ذاكرة له ولا حاجة له بها"[8]، ومدعيا بأن أساس التذكر إنما: "هو فعل مؤجل"[9]. ويعلق باشلار Bachelard على ذلك قائلا:"إن تذكر أفعالنا بربطها بما تلاها أيسر علينا من تذكرها بربطها بما سبقها"[10]، وقائلا أيضا:"إن

(7) ذكره Gaston Bachelard في كتابه La dialectique de la durée Paris, PUF, 1972, ص. 50

(8) م.م.، ص.45.

(9) م.م.، ص.45.

(10) م.م.، ص. 45-46

الذاكرة بدون العقل غير تامة ولا مجدية"[11]، وجازما بتفوق الزمان المراد voulu على الزمان المعيش vécu. وعلى كل حال فالذاكرة ليست ديمومة، وإنما هي شذرات. ولعلها شذرات ذهبية، لكنها شذرات متقطعة متناثرة عبر الزمان. يقول باشلار:"لا ينبغي الخلط بين ذكريات ماضينا وذكريات ديمومتنا. إن أبعد ما نعرف من ماضينا [...] هو ما كان لنا يد في إثارته عبر الزمان، أو ما صدمنا عبر الزمان. ولا نحتفظ بأي أثر عن الحركية الزمنية وعن مرور الزمان. وما معرفة النفس إلا بالوقوف على الهباء المتناثر من الوقائع الذاتية. ولا تتبني شخصيتنا إلا على مجموعة من القرارات المجربة"[12]. وقال جاني:"إن الذاكرة تكتمل في الصمت[...] إنها تكتمل بالاكتمال التدريجي للذكريات الذي يتم شيئا فشيئا. ولذلك تكون الذكرى بعد بضعة أيام أوضح مما تكون في البداية، فإنها أشد نصاعة وأحسن حبكا"[13]. وعندما يدرك المرء من خلال التذكار استحالة الديمومة، فإنه يدرك أحكام الانتقال من حال إلى حال فيعي التبدل والتغير. وهذا الوعي مثير للعاطفة أيما إثارة. يقول جاني:" إن التغيّر في اتصال شبه مسترسل بالمشاعر وبالشعور بالكآبة في الغالب، ذلك بأن التغيّر لا يخلو في الباطن من كآبة لأنه كناية في جل تجلياته عن الغياب"[14]. ويقول أيضا:" تنبني البشرية على الرواية وليس على الإنشاد"[15]. وليست الذاكرة إذن والتاريخ سوى قصة الآثار أو ما علق بالذهن من شذرات الماضي. وهل الكتب المنزلة إلى قصص من نزل عليهم الذكر من الرسل والأنبياء، وقصص من سبقهم من العالمين، كما قال تعالى: **﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾. ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾**"(يوسف، 3). ومعنى ذلك فيما نحن بصدده أن الوحي الذي هو العقل، سابق للتذكر. ولما كان مقدما عليه، وجب أن يكون التذكر ليس عملية عفوية بل عملية مبنية موثقة متماسكة. وقد كتب في هذا الموضع الفرنسي جان-بول ريكور Jean-Paul Ricoeur كتابه الكبير عن " الزمان والقصة "[16] يبيّن فيه أن التاريخ إبداع روائي مثلما أن القصة على

(11) م.م.، ص. 47
(12) م.م.، ص. 35
(13) م.م.، ص. 49
(14) م.م.، ص. 44
(15) م.م.، ص. 49
(16) Ricoeur, Paul, Temps et Récit, Paris, Seuil, 1983, 3 vol.

اختلاف تجلياتها إبداع تاريخي. ولا بد في كلتا الحالتين من آثار تعتمد للإيهام بالاسترسال، حيث لا يوجد إلا التشذر، ومن يومية لعد السنين والشهور والأيام ليتيسّر الترصد، ولا مناص من رصد المنطلقات لتبرز الغايات.

5 . الغايات

يقول باشلار:"يستحيل الوقوف على الزمان دون الحكم عليه"[17]. وذلك لأن الماضي إذا كان مجرد استحضار، وكان الاستحضار إنما هو تذكار من أجل أمر مرتقب، فإن التذكار أو كتابة التاريخ من الأعمال الهادفة حتما ومن الأعمال الملزمة. فإننا لا نتذكر حبا في التذكر، وإنما نتذكر في زمان ومكان معيّنين. فالذاكرة مقال، والمقال هو ما يحتج به عند الاحتكام. وبناء عليه، فالكتابة في التاريخ أو الصدع بما في الذاكرة، إنما هو طرح أو أطروحة تؤخذ أو لا تؤخذ بعين الاعتبار لدى الجمهور. وقد أحسن بينيديطو كروتشي Benedetto Croce عندما قال بأن كل تاريخ، إنما هو تاريخ معاصر، مكتوب لزوما بلغة من يكتبه ولغة من يطالع فيه، مع ما تحت ذلك من هواجس اللحظة. ولا ننسى أن عنوان تاريخ ابن خلدون الكامل جاء على ما يلي: " كتاب العبر والمبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". وقد انكب على تدوين ما هاله من تردي الأوضاع في المغارب بعد أواسط القرن الثامن (هـ)/ الرابع عشر(م) فقال:" وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة، فقد انتقلت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم. هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغها الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار

(17) ص. 36 م.س. Bachelard

والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن. وكأني بالمشرق قد نزل به ما نزل بالمغرب، لكن على نسبة ومقدار عمرانه. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة: والله وارث الأرض ومن عليها"[18]. وهذه الصفحة المأساوية كانت هي بيت القصيد من تاريخ ابن خلدون، الذي يعبر عما كان يختلج في صدور معاصريه من التساؤل عن أسباب الانحطاط بعد كل الذي كان من الهيمنة والازدهار في العصور السابقة. وإذا كان ابن خلدون قد كتب عن نهاية عالم من العالمين، فإن الألماني هيكل Hegel كتب في مطلع القرن التاسع عشر عن عالم في طريقه إلى احتلال مركز الصدارة، وهو عالم القبائل الجرمانية ومجال أوربا المسيحية الغربية[19]. كما أن كارل ماركس كتب هو الآخر منتقدا النظام الرأسمالي القائم ومتشوفا إلى اليوم الذي يكون الإنسان قد انعتق من قيوده[20]. فنادرا ما يكتب المؤرخ متغافلا عن السياسة، وهي هموم ساعة الكتابة، كما أن الذكرى لا تستحضر إلا بما يستثيرها في الحاضر أو المستقبل، هذا لو جزمنا بتجانس الذاكرة والتاريخ. لكن ماذا لو كان في تعارضهما ما لا مفر من الانتباه إليه ويحمل على دخول دروب أخرى من التحليل؟

وجوه الاختلاف بين الذاكرة والتاريخ

1. الاشتقاق اللغوي

لأمر ما جاء مفهوما الذاكرة والتاريخ في جل اللغات على حروف متباينة. وكما أن الريح ليس هو الهواء، ولا الثلج هو الماء، ولا الخشب هو الشجر، ولا الفرد هو الجماعة، فكذلك ليست الذاكرة هي التاريخ. وإن الوقوف على ما بين هاذين اللفظين من التفاوت الصوتي واللغوي في العربية يوحي بالكثير من المعاني. فمادة ذكر عربية أصيلة، معناها الأول حفظ الشيء من النسيان، كما يوحي بذلك البيت المستشهد به أعلاه. ومعناها الثاني عكس الأنوثة، فنقول مولود ذكر. أما في المجاز، فذكر المرء في الناس صيته وشرفه.

(18) ابن خلدون، م.م.ن ص. 405-406

(19) Hegel, Leçons sur la philosophie de l'histoire, Vrin, 1946

(20) ماركس، كارل، بيان الحزب الشيوعي

وطريق مذكّر، أي مخوف، ويوم مذكّر، أي شديد القتال. مما يدل على أن لب المعنى في مادة ذكر يفيد المتانة والكثافة والثبات.

أما مادة التاريخ، فإنها على النقيض من ذلك، غير عربية، فهي دخيلة من اليونانية، بعد انتشار الإسلام بكثير، إذ لا ذكر لها في التنزيل، ولا في كتب اللغة وقواميسها الكلاسيكية. ويوم احتاجت الجماعة الإسلامية الأولى في عهد عمر بن الخطاب إلى ضبط دواوين التراسل بين الخليفة وأمرائه في مختلف الجهات المفتوحة، فإنها استقصت عن عدّ الأيام والشهور والسنين عند باقي الملل والأمم، واختارت لنفسها يومية خاصة بها انطلاقا من هجرة الرسول عليه السلام من مكة إلى المدينة. وكان من الطبيعي أن تهتم الجماعة يومئذ بإرساء مجال الملة الناشئة، قبل أن تهتم بكتابة تاريخ ذلك وتدوينه. ويوم احتاجت إلى ذلك، فإنها نهلت بدون تردد من لغة العلم يومئذ التي كانت هي اللغة اليونانية. فاستعارت منها لفظتين، أولاهما لفظة هيرودوطوس Historia فجعلتها أسطورة للدلالة على ما يكتنف ماجريات الماضي من العجائب، وهو ما تسميه العربية بالخرافة استخفافا بما تحمله من السخافات. واستعير لفظ ثان، وهو لفظ أرّخ، محرفا من مادة arkhein، التي تفيد في اليونانية معنيين، أولهما البداية والانطلاق وأصل الأمور، ومنه اشتقت اللغات الأوربية لفظتي archéologie و archives. والمعنى الثاني، وهو الحكم والقيادة والتقدم في الصف على الجماعة. ولذلك كان حكام أثينا يسمون أرخونطوي arkhontoi. وانشق من ذلك في اللغات الأوربية الحية مصطلحات من جنس monarchie، يعني حكم الفرد الواحد، و anarchie، يعني حكم الفوضى. ومن هذا المعني المزدوج، صاغت اللغة العربية كلمة تاريخ للدلالة على فن تدوين أحداث الماضي ونظمها في سلك متسق واحد، سواء في ذلك تاريخ الوقائع السياسية والعسكرية المجردة أو تراجم الرجال على اختلاف ما اشتهروا به من الصناعات، أو سير الأدباء والشعراء، علما بأن عملية التدوين التاريخي ليست عبثا في عبث، وإنما هي عملية هادفة لها صلة متينة بشؤون الحكم وقيادة الجماعة، فهي أداة من أدوات التوثيق وضبط المنطلقات وحفظ الثوابت ورسم الغايات. ولا غرابة إذن في امتداد معنى التاريخ في العربية إلى عملية التوقيت بترتيب الأيام والشهور والسنين، مما يسمى في اللغات الأوربية date ولم تفرده العربية بلفظ مميّز. ولما كانت المسافة اللغوية بين الذاكرة والتاريخ على هذه الدرجة

من التفاوت، وجب أن يترتب على ذلك جدل بين المفهومين، وأن يحتدم الجدل في السنوات الأخيرة، فلا مناص من البحث في أسباب التفاوت وفي أسباب ما يعار لذلك في يومنا هذا من العناية.

2. أسباب الاختلاف في الدلالة

قلنا آنفا إن وظيفة التذكر والكتابة التاريخية هي استحضار ما غبر اعتمادا على ما حضر. ولكن طريقة الاستحضار تختلف عند المؤرخ وعند من يكتفي بالتذكر. ذلك بأن العمليتين تنتسبان إلى سلمين متميزين من المعايير، أو أنهما تتمان على مستويين متباعدين من التحليل.

وأول ما يفرق بينهما أن التاريخ فن وصناعة وأمر موضوع يحترفه طائفة من الناس يكرسون جهودهم بل وحياتهم للبحث في طواياه والنبش في الوثائق الغميسة والآثار المتآكلة لإضفاء شيء من الديمومة على ما عفى عليه الزمان. بينما الذاكرة عملية يشترك فيها الخاص والعام، ولا حاجة فيها إلى التخصص أو الانكباب ليل نهار على الطاولة لرصد محطات الماضي وتدوينها وإقامة الأدلة القطعية على وقوعها وكيف جرى ذلك ومتى، وذلك لما ترتبط الذاكرة به من الذاتيات ومن العفوية التي قد لا تسلم من شوائب الخيال. وقد أجري اختبار على مجموعة من العلماء، كانوا في ندوة من ندواتهم، فإذا برجل يدخل عليهم القاعة يعدو أمام رجل آخر يطارده متوعدا شاهرا للسلاح، ثم خرج الرجلان من باب آخر، وطلب من الحضور، وكلهم من فطاحل العلماء، أن يصفوا ما علق بذهنهم مما شاهدوه بالعيان. فجاءت شهاداتهم على أشد ما يمكن من الاختلاف، فما رآه الواحد منهم لم يره الآخر وهكذا. وإذا كان التذكر والتاريخ أسلوبين في استحضار الماضي، فمن الواضح الجلي أنهما متميزان متفاوتان.

3. الذاكرة

نعتمد في التعريف بالذاكرة على ما ذهب إليه بيركسون في كتابه المادة والذاكرة[21]، مكتفين بالنتائج، متغافلين عن دقائق التحليل السكولوجي الذي لا حاجة لنا بها. وننطلق مع الفيلسوف من أن المعرفة تتم بالإدراك الحسي perception الذي هو عنده إحساس وانفعال، ذلك بأن:" الإدراك الحسي في مجمله، على ما قال، لا يحصل أصلا إلا من توقان الجسم إلى الحركة "[22]. ويقول أيضا:" لا سبيل إلى الإدراك الحسي بدون انفعال"[23]. ولذلك ففي رأيه: "إن الإدراك الحسي الواعي معناه الاختيار، والضمير هو قبل كل شيء تمييز عملي"[24]. بيد أن الإدراك الحسي لا يتصور مجردا مما هو مشبع به لزوما من الذكريات. قال بيركسون: "لا وجود لإدراك حسي غير مشوب بالذكريات"[25]. وإذن ليست الذكريات إلا مجموعة من الإدراكات الحسية المختزنة. يقول بيركسون:"إذا وقفنا على الذاكرة، وهي بقايا من مشاهد سابقة، فإن هذه المشاهد تختلط باستمرار بما ندركه حسا من الحاضر، وبوسعها أن تحل محلها"[26]. ثم يقول ما لم يفتأ يردده في كتابه بأن:"الإدراك الحسي ليس في نهاية الأمر سوى مناسبة للتذكر". وليست الذاكرة إلا وظيفة من وظائف النفس أو الفكر.

لكن الذاكرة ذاكرتان، واحدة تتصور وأخرى تكرر القول. فأما التي تكرر القول، فهي التي تمكننا من ترداد ما نحفظه من أبيات الشعر مثلا، أو ما يمكّن الحيوان من معرفة ولي نعمته، وهي أقرب إلى العادة المكتسبة منها إلى شيء آخر، ولا يعنينا شيء منها هاهنا. أما الذاكرة المتصورة، فهي مبنية على التلقائية،"وتبدي من النزق في التجلي، حسبما قال بيركسون، مثلما تبدي من الإخلاص في الحفظ"[27]. ولذلك فإن الذكريات الذاتية:"مبنية على التشرد بالأساس، فلا تتبلور إلا بالصدفة، إما لأن موقفا عرضيا مضبوطا من مواقفنا الذاتية

(21) Bergson, Henri, Matière et Mémoire, Paris, PUF, 1946، ص. 44
(22) م.م.، ص. 44
(23) م.م.، ص. 59
(24) م.م. ، ص. 48
(25) م.م. ، ص. 30
(26) م.م. ، ص. 68
(27) م.م. ، ص. 68

يجتذبها، وإما لأن انعدام الانضباط في مواقفنا الذاتية يتيح أمامها فرصة التجلي بحسب نزقها"[28]. فهناك تفاعل بين الإدراك الحسي والتذكار، يقول عنه بيركسون:"فمن جهة حقا لا ينحدّ الإدراك الحسي تمام الحد ولا يتميز إلا بالتحامه مع صورة تذكار نرميه بها. ولا سبيل إلى الانتباه دون ذلك، وبدون انتباه، فليس ثمة إلا سلسلة من الأحاسيس السلبية المبنية على الانفعال الآلي. لكن من جهة أخرى[...] من شأن الصورة التذكار، كلما وقفت عند مجرد الذكرى الخالصة، أن تكون غير ذات جدوى. ذلك بأن هذه الذكرى لا يمكن أن تستحضر إلا من خلال ما يجتذبها من الإدراك الحسي. فكأنها من عجزها لا تستمد الحياة والقوة إلا من الإحساس الآني الذي يمكّن من بلورتها"[29]. وهل التفاعل بين الإدراك الحسي والتذكار إلا تفاعل بين الماضي والحاضر، علما بأن ما بينهما أكثر من فارق في الدرجة. قال بيركسون: "هناك بين الماضي والحاضر أكثر من فارق في الدرجة. فحاضرنا هو ما يعنينا وما فيه إحياؤنا، وهو بعبارة أخرى ما يحملنا على العمل، بينما ماضينا مطوي أصلا على العجز[30]. ولكن ما معنى الحاضر عند بيركسون؟ يقول:"ما معنى اللحظة الحاضرة بالنسبة إلينا؟ إن الزمان من طبيعته يجري. وما جرى من الزمان هو الماضي. ونطلق لفظ الحاضر على اللحظة التي يجري فيها، علما بأن هذه اللحظة ليست لحظة ماطيماثيقية، وبأن هناك ولا شك حاضرا مثاليا، مدركا في الجوهر، محصورا منفردا يفصل بين الماضي والحاضر. لكن الحاضر الواقعي الملموس المعيش، والحاضر الذي نعنيه عندما نتكلم عن إدراكنا الحسي الحاضر، حاضر له بالضرورة شيء من الامتداد الزمني. وأين توجد هذه الديمومة؟" الجواب فيما يلي حسب بيركسون:"من البديهي أنها تمتد إلى ما قبل وإلى ما بعد في آن واحد، وأن ما نسميه حاضرنا يتطاول في آن واحد على ماضينا وعلى حاضرنا[...] ولا بد إذن للحالة السيكولوجية التي نسميها حاضرنا من أن تكون في آن واحد إدراكا حسيا للماضي القريب وكشفا عن المستقبل القريب. بيد أن الماضي القريب إحساس، بصفة كونه مدركا حسيا، لأن كل إحساس إنما هو متوالية طويلة من الذبذبات البسيطة. كما أن المستقبل القريب عبارة عن فعل أو حركة، بصفة كونه منكشفا. فحاضرنا إذن إحساس وحركة [...] حاضرنا

(28) م.م.، ص. 94
(29) م.م.، ص. 116
(30) م.م.، ص. 142

إحساس محرك"[31]. والمعضلة هي أننا:"عندما نتصور الحاضر على أنه سيكون، فإنه لم يكن بعد. وعندما نتصوره كائنا حالا، فإنه يكون قد تحول ماضيا"[32]. ذلك بأن الحاضر لا وجود له بصفة الحاضر، وإنما يوجد على سبيل الاستحضار. قال بيركسون:"مادة الحاضر في مجملها ماض قريب. ذلك بأن الجزء من الثانية التي يمتد فيه ما يتأتى لنا من إدراكه حسيا من الضياء، ما هو إلا عبارة عن ملايير الملايير من الذبذبات يفصل الأولى عن الأخيرة فاصل شديد التجزؤ. ومهما كان من فورية إدراكنا الحسي فإنه مركب من عدد لا يحصى من عناصر التذكر، بحيث ليس الإدراك الحسي في الحقيقة سوى ذاكرة. والحالة هذه، فإننا لا ندرك حسيا إلا الماضي، لأن الحاضر الخالص، إنما هو زحف الماضي في خفاء للنيل من المستقبل"[33]. ويتساءل الفيلسوف في هذا المقطع أيضا قائلا:"والذي يدعو إلى التساؤل هو معرفة ما إذا كان الماضي لم يبق له وجود أم أنه فقط لم يبق له فائدة". ثم يضيف قائلا: " نقول عن الحاضر إنه ما هو كائن، بينما الحاضر إنما هو ما نفعل فقط". وإذا كانت الذاكرة من جنس المدركات الحسية، فهي من الأمور الطبيعية ومن المحسوسات ومن الذاتيات ومما نريده من الجزئيات المفردات التي ترمي إلى أغراض وأفعال أنانية. إنها مما نستحضره لحاجة في أنفسنا. وهي إذن أقرب إلى الرواية منها إلى الدراية، وأشد انتسابا لما يسمى واقعة منها إلى ما يسمى في التاريخ عاملا. وأنصع دليل على ذلك قصة الفرنسي مارسيل بروست Marcel Proust بعنوان" النفوذ إلى الزمن المفقود"[34]. إنها قصة ممددة ممططة يستحضر فيها الكاتب ماضيه بالانفعال مع ما تستثيره في ذهنه المدركات الحسية الحاضرة، فيتجرع مثلا جرعة من الشاي مصحوبة بقطعة من الكعك، فيغمره نوع من الوحي يبدي في ذهنه مشاهد مفصلة من الماضي، فيسود بها الصفحات.

4. التاريخ

إذا كان ما قلناه عن الذاكرة على جانب من الصواب، وإذا كانت الشبكة التي تنبني عليها الذاكرة هي شبكة الحواس والعواطف والانفعال والغريزة والذاتيات والروايات

(31) م.م.، ص. 152
(32) م.م.، ص. 153
(33) م.م.، ص. 166
(34) Proust, Marcel, A la recherche du temps perdu, Pléiade, 3 Vol.

الشفوية، فمن المؤكد أن الفرق بينها وبين التاريخ ليس فرقا في الدرجة وإنما هو فرق في النوع. ويختلف عنها التاريخ بما هو مبني على العقل وعلى المدركات الفكرية والأفعال المضبوطة والتصورات الموضوعية والاعتبارات الجماعية والأحكام الرصينة والكلام المدون الناجم عن الدراية. وأحسن ما يثبت الفرق بين الذاكرة والتاريخ تعارض مفهومي الرواية والدراية. فالرواية نقل الخبر، والدراية إحاطة بأسباب النزول وتوابعه. والرواية قصة غير منخولة. أما الدراية فقصة دخل عليها النقد والتمحيص. قال المؤرخ الفرنسي شارل لانكلوا Charles Langlois:"إن الغريزة الطبيعية في المرء يقع في الماء تحمله على فعل كل ما لا بد أن يؤدي به إلى الغرق. ولا نتعلم السباحة إلا لنتعود على كيفية تجنب الحركات الغرائزية لنقوم بحركات أخرى. وكذلك الأمر بالنسبة لعادة النقد، فإنها غير طبيعية، فلا بد من اكتسابها، ولن تتحول إلى شيء عضوي فينا إلا بتمارين مسترسلة. وما التاريخ إلا عملية نقدية بالدرجة الأولى. وإذا ما تعاطيناه قبل الاحتياط من الغرائز، فإننا معرضون للغرق"[35]. وذلك لأن الذاكرة من جنس المدركات الحسية، نستحضر الماضي بها بالصدفة وبلا صدفة. بينما التاريخ بناء عقلي يقوم من طول التنقيب ومن استعمال جميع أدوات الفكر وفي طليعتها النقد. وفي هذه الحالة قد تزداد الملكة التاريخية بقدر ما يكون بين المؤرخ ومجال بحثه من البون والغرابة، فلا يكون مرتبطا بأي رابطة من روابط الذاكرة.

قال المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل Fernand Braudel:"إن المفاجأة و الاغتراب والابتعاد عن الموطن كلها أدوات جبارة من أدوات المعرفة، وليست أقلها ضرورة لفهم ما يحيط بنا، وقد لا يبدو لنا لشدة ما هو قريب منا"[36]. ولا أدل على ذلك من جودة بعض الدراسات التاريخية المنجزة على يد من كان متجردا عن كل ذاكرة بشأن موضوعاتها. مثال ذلك مثال إفارست ليفي-بروفنصال Evariste Lévi- Provençal في كتابه عن الأندلس العربية، ومثال الأميريكي جورج باكسطن Robert Paxton في كتابه عن نظام فيشي في فرنسا أيام الاحتلال الألماني[37]. ومعلوم أن لوحات الرسم لا تتجلى معالمها إلا بالابتعاد عنها وعدم

---

(35) انظر: Braudel, Fernand, Ecrits sur l'histoire, Flammarion,1969، ص. 18

(36) Paxton, Robert O. La France de Vichy,1940-1944, Seuil, 1972;
Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane,Paris,1944-1953.

(37) م.م.، ص. 59

الانكباب عليها من قريب. ولذلك تعتبر دراسة الحقبة المعاصرة في التاريخ من أصعب ما يمكن دراسته لعجز الباحث عن تناول موضوعه بشكل شامل، لأن التاريخ كما يقول بروديل تركيب وجوق، وأنه هو والسوسيولوجيا ينفردان من بين العلوم الإنسانية كلها بالشمولية. قال هذا المؤرخ:"إن التاريخ والسوسيولوجيا هما العلمان الشموليان الوحيدان الجديران بنقل فضولهما المعرفي إلى أي مجال من مجالات الشؤون الاجتماعية. فالتاريخ من حيث إنه علم باقي العلوم الإنسانية في فضاء الماضي الشاسع، تركيب وجوق"[38]. وحيث إن الذاكرة انفعال فردي، فإن التاريخ فعل جماعي. والفرد عابر والجماعة هي الدوام. وغني عن البيان أن السلم الزمني الذي تجري فيه الانفعالات الفردية لا يمكن أن يقاس بالزمن الذي تجري فيه أفعال الجماعة. يقول بروديل:"لا وجود لزمن جماعي يجري دفعة واحدة منفردة، وإنما هناك الزمن الجماعي الذي يجري على عدة سرعات وعلى عدة منعرجات، ولا علاقة له بالزمن الصحافي الذي هو زمن الحوليات والتاريخ التقليدي"[39]. وزمن الذاكرة إذن هو زمن الواقعة المجردة المنعزلة. بينما زمن التاريخ هو زمن العوامل المركبة الممتدة المتشابكة. ولقد تعلمنا في مدرسة Les Annales ما يفرق بين الواقعة والحدث événement والعامل fait/facteur. فالواقعة هي المادة التاريخية الخام، بينما العامل كتلة من الوقائع منها ما هو موثق ومنها ما ضاعت وثائقه، ولكن مفعولها يتظافر بشكل يؤثر في بيئته في مكان وزمان معينين. ولذلك لا سبيل إلى حفظ الوقائع إلا بترتيبها داخل العوامل. فمن يستطيع مثلا ذكر ما جرى في المغرب بكل تفاصيله من يوم فرضت الحماية الأجنبية عليه يوم 30 مارس 1912 إلى يوم استرجع استقلاله في 3 مارس 1956؟ ولكن هل يحتاج المؤرخ إلى كل التفاصيل لإدراك ما دخل على البلاد المغربية من وجوه التغيير في تلك الحقبة؟ ولا غرو أن من الوقائع ما له وزن العوامل. فإن التوقيع على عقد الحماية يوم 30 مارس 1912 في قبة معينة من قبب القصر السلطاني في فاس من قبل السلطان المولى عبد الحفيظ وسفير فرنسا هانري رينيو Henri Regnault كان مجرد واقعة محصورة في الزمان وفي المكان. لكن هذه الواقعة لم تقع لا بغتة ولا صدفة، وإنما ظلت فرنسا تستعد لها منذ عدة عقود، مثلما أن المغرب ظل يدافع

(38) م.م.، ص. 106

(39) م.م.، ص. 24

عن سيادته إلى أن ألزمه ضعف وسائله وتحالف الدول العظمى عليه الرضوخ للإرادة الاستعمارية. فهذه إذن واقعة لها ما قبلها ولها ما بعدها على مدى السنين، فهي واقعة عاملة في التاريخ لامتداد أسبابها فيما سبق ومسبباتها فيما لحق. أما فيما عدا ذلك من الوقائع، فشأنها شأن الإحصاء مثلا، لا عبرة فيه بالمعطى المنفرد المنعزل. ولا بد فيه من أكثر ما يمكن من المعطيات لاستخلاص ما يسميه الإحصائيون التوجه العام trend / tendance نحو صعود أو نحو هبوط المنحنى، وذلك هو قصد المؤرخ وغايته القصوى. ولقد مرض ليوطي سنة 1923 مرضا أشفى منه على الهلاك. ولكن ذلك لم يغير شيئا من تاريخ الحماية، ولا حتى من مجرى السنتين التاليتين اللتين قضاهما ذلك المقيم العام الذائع الصيت على رأس الإدارة الفرنسية في المغرب. والخلاصة إذن أن الذاكرة والتاريخ من نسيجين مختلفين، بحيث يمكن للذاكرة أن تتذكر دون أن تكون على بينة من التاريخ، مثلما يمكن للتاريخ أن يقوم بعمله دون أن يلجأ إلى الذاكرة. مما يوقعنا في تناقض مع ما سبق أن قلناه عن تجانسهما. وإن لم يكن في ذلك تناقض، فنحن إذن بصدد لغز لا مفر من السعي في فكه.

اللغز ووجوه فكه

1. ذاكرة المؤرخ والتاريخ

غني عن البيان أن لكل مؤرخ ذاكرته. ولكن من الواضح الجلي أيضا أن المؤرخ المحترف متحرز كل التحرز من ذاكرته. فلو سألت ذاكرتي عما تحفظ من الحرب العالمية الثانية مثلا، وكنت في السنوات الأولى من مسيرتي في هذه الحياة الدنيا، لما استحضرت منها سوى بعض لحظات الرعب جراء صفارة الإنذار التي كانت تحمل الوالدين في الليل على الأمر بإطفاء الأنوار والتزام السكينة والصمت، وإيداعنا نحن الأطفال في قعر الدار. أما من مشاهدها المسلية، إن كان في الحرب ما يسلي، فلا أستحضر إلا صعودنا إلى السطح ذات يوم مهرولين لمشاهدة نزول المظليين بمطار ظهر المهراس في فاس. ولم أدرك يومئذ لا معنى المظليين ولا معنى العسكر ولا أدنى شيء مما كان يجري من الاقتتال. وإنما ترسخ في ذاكرتي كائنات وردية اللون تتناثر من الطائرات وتتساقط وكأنها ديدان معلقة بما يشبه

الفقاقيع. وتلك ذكريات لا حاجة للمؤرخ ولا للتاريخ بها، وإن كنت أعلم اليوم أنها تتصل بنزول الجيوش الأمريكية في المغرب، وأنها تقع من حيث التوقيت في شهر نونبر1942. ولا عبرة بطراوة السن عند الجزم بعدم جدوى الذكريات الذاتية في التاريخ. فلو استقصيت الذاكرة عما علق بها من فترة الحماية الفرنسية التي انتهت لدى دخولي سن الرجولة، لما جاءتني بأكثر من بعض المشاهد مثل وقوف العسكر السوداني المنضوي في جيش الاستعمار بدار الجنرال الفرنسي قائد الناحية في ساحة سيدي الخياط بحومة الدوح، يؤدون التحية له بالموسيقى عند خروجه من إقامته وعودته إليها. وملامح هذا الجنرال هي ملامح الجنرال سوفرين Suffren، وكان كريه المنظر. بينما لم أعقل شيئا من ملامح خلفه الجنرال لابارا Laparra، وإن احتفظت بصورة ابنته التي كانت تدرس الرياضيات في ثانوية المولى إدريس وكانت سيارة والدها الفخمة تنقلها صباح مساء إلى مقر عملها، فأحدق في تباشيرها بدافع فضول المراهقة. وعشت لحظات تصفية الحماية الفرنسية في منتصف الخمسينات. ولكنها مختزلة كلها في ذاكرتي في صورة الملك محمد الخامس محفوفا بالأميرين المولى حسن والمولى عبد الله وهم ينزلون من الطائرة التي عادت بهم من المنفى إلى أرض الوطن يوم 16 نونبر 1955، وما كان من فرحة الجماهير المغربية بذلك الفوز المبين. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الذاكرة كما بينا آنفا ليست سوى ضرب من الإدراكات الحسية، قد تشفي الغليل الذاتي بالزيادة أو بالنقصان، ولكنها لا تغني في إثبات التاريخ الموضوعي إلا بمثل ما يكون من البلاغة القصصية. وأوضح مثال على ذلك بالنسبة لكاتب هذه السطور، ما جرى في شهر يناير1944. ففي 31 منها سقط والدي مصابا برصاص الاستعمار في باب القرويين. ونقل إلى مستشفى الشراردة للعلاج، الذي لم يجد لرفض الجنرال سوفرين قائد الناحية أن يجود عليه بشيء من السولفاميد، فتوفي رحمه الله بعد اثني عشر يوما مثخنا بالجراح. وتحفظ الذاكرة ما واكب كل ذلك من الآلام والمتاعب بمنتهى الدقة والحسرة، فكأنها من أحداث أمس البارحة. ولكن ما وزن كل ذلك في سجلات التاريخ؟ فإذا استقصينا تاريخ المغرب، وجدنا أن شهر يناير1944 هو شهر نشر عريضة المطالبة بالاستقلال، واللحظة التي أخذ فيها الملك محمد الخامس بيد الوطنيين لدخول الشطر الأخير من درب المقاومة من أجل التخلص من الحماية. وإذا استقصينا تاريخ الدولة الحامية، وجدنا أن هذا الشهر هو شهر

الاستعداد لتحرير التراب الفرنسي من الألمان ومن حكومة فيشي المتعاملة معهم، ولذلك كان رئيس فرنسا الحرة الجنرال دي كول De Gaulle يومئذ يدير جلسات مؤتمر برازافيل في قلب إفريقيا لتجنيد الطاقات البشرية والاقتصادية للإمبراطورية الفرنسية، متعهدا للشعوب المغلوبة على أمرها بطي مرحلة التبعية الاستعمارية وفتح صفحة ائتلاف جديد يدعى الاتحاد الفرنسي. أما على الصعيد العالمي، فشهر يناير 1944 هو شهر انكباب الجيوش الأميركية والبريطانية على الاستعداد للنزول على شواطئ إقليم نورماندي في فرنسا، وهو بالتالي لحظة انطلاق العد العكسي لاندحار الجيوش النازية بعد ذلك بشهور معدودات. وقد تضيف الذاكرة لكل ذلك إضافات مثيرة مفيدة، مثلما فعل كل من كتب عنها كالجنرال دي كول أو رئيس الحكومة البريطانية ونسطن تشرتشيل، اللذين كانا على بينة من أنهما يكتبان المذكرات Mémoires وليس تاريخ الحقبة برمتها، علما بأن مذكراتهما من المصادر التي لا غنى عنها للمعتني بالحرب العالمية الثانية، وعلما بأن هاذين القائدين وقفا عند ذكر الأحداث الكبرى ولم يذكرا شيئا من معاناتهما الذاتية [40]. ومع ذلك تبقى الذاكرة وجهة نظر منطلقة من اندفاع تشوبه العواطف، فلا يعنى بها في الغالب إلا صاحبها. أما التاريخ فإنه بحث وفحص واجتهاد بقصد التوسط بين التذكر والنسيان، أو تذكر ما يعني الجماعة ونسيان ما لا يعني إلا الأفراد.

2. الفرد والجماعة

لاشك أن قضية الواحد وأضعافه معضلة من معضلات الفلسفة. ولسنا بحاجة إلى فكها هاهنا، حتى ولو كنا مؤهلين لذلك. ويكفي أن ننتبه إلى قدرة الجماعة على الإتيان بما لا يستطيع الفرد المنعزل الإتيان به. فالمرء وحده لا قدرة له على إماطة الصخرة الضخمة من مكانها ولو حاول ذلك عدة شهور، ولكن عشرة رجال يدحرجونها إلى حيث يراد لها في لحظات. ولعل صلة الذاكرة بالتاريخ من هذا السبيل. فليست ذكريات ثلاثين مليون من المغاربة هي بالضرورة تاريخ الأمة المغربية. ذلك بأن الذكريات معرضة للتكرار وللإفراط

(40)
- De Gaulle, Mémoires de guerre,
- Churchill,Winston, La deuxième guerre mondiale, Paris, Plon, 1948

أو التفريط. بينما التاريخ ملزم بإبراز ما لا يتكرر وما لا سبيل إلى دحضه. ولا أدل على ذلك من قضية المقاومة المغربية للحماية. فإنها صعبة التوثيق من جهة الذاكرة، واضحة المعالم من جهة التاريخ[41]. ودليل آخر على ذلك، قدرتنا على التعرف على التاريخ البعيد عنا في الزمان وفي المكان وإن كنا مفتقرين لأدنى الذكريات عنه، فنطلع على تاريخ الفراعنة على بعد الفاصل الزمني بيننا وبينهم، ونتتبع أطوار بلاد الصين على بعد الشقة بيننا وبينها، مما يعني أن الذاكرة موطنها الإرادة الأنانية، بينما التاريخ من إنتاج التصور العقلي على شكل ما عرف بهما الألماني شوبنهاور Schoppenhauer، جاعلا من الإرادة ما لا يبتعد كثيرا عن غريزة الحياة فيحملنا على العمل وعلى التعبير الفني بمختلف أشكاله، ومن التصور العقلي ما لا يتميز عن الحكمة والتبصر فيحملنا على العلم والإبداع التقني. بيد أن شوبنهاور هذا لا يعتبر التاريخ علما، وإنما هو عنده عرفان[42]. وإذا سلمنا بذلك فلا فرق بين الذاكرة والتاريخ، إذ من الذاكرة ما هو جماعي مثلما أن مجمل كتب التاريخ أنجزها الأفراد. ولا أدل على وجود الذاكرة الجماعية من وجود اللغة. إن اللغة هي خزان الذاكرة. ولأمر ما تنعت الألفاظ اللغوية في العربية بالمصطلحات. ولولا اصطلاح جماعة معينة عليها لما كان لها مدلول. والمؤرخ الذي يدعي كتابة تاريخ الجماعة بغير امتلاك لغتها، مقصر حتما في كتابته. ذلك بأن الكتابة التاريخية لابد لها من عاطفة تحفزها ومن عقل يكون بمثابة المقود في سيرها. وأمهات الكتب التاريخية قائمة على ازدواج العاطفة والعقل. وأحسن مثال على ذلك الكتاب القيم الذي وضعه الأميريكاني هودسون Hodgson بعنوان"المغامرة الإسلامية"[43] الذي تتبع فيه بمنتهى التعاطف والنقد الموضوعي مراحل بناء الأمة الإسلامية على اختلاف مكوناتها في الشرق والغرب. ولو لم يكن هذا العالم مالكا للغات الإسلام من عربية وفارسية وتركية وغيرها، لما حالفه النجاح فيما رام. والعكس صحيح. فإنه لم يقم في الأمة الإسلامية واحد من أبنائها ليضع كتابا من هذا الطراز وعلى هذا المنوال. وسبب ذلك انجذابنا في الغالب مع الذاكرة العاطفية، ووقوفنا دون المستوى المنشود من التعقل. فكأن الذكريات

(41) وحيد، محمد، مساهمة في دراسة الحرمة الوطنية، مقاومة الدار البيضاء، 1952-1956، رسالة لنيل الدكتورة الوطنية، كلية الآداب بالرباط، سنة 2001، مرقونة.

(42) Choppenhauer, Le monde comme volonté et comme représentation, Pléiade, vol. 1

(43) Hodgson,Marshall, The venture of Islam, University of Chicago Press, 1974, 3 vol.

الفردية تحول بيننا وبين الكتابة الرصينة لتاريخنا المعاصر لشدة ازدحامها في أذهاننا، وكأن الذاكرة الجماعية تحول بيننا وبين الإدراك السليم لتاريخنا القديم لشدة ما يركبها من الخيال. مما يبقي السؤال مطروحا لمعرفة سبب احتدام النقاش حول جدلية الذاكرة والتاريخ في السنوات الأخيرة.

3. الذاكرة والتاريخ والعولمة

من الواضح الجلي أن ما تمر منه دنيانا هاته من التقلبات السريعة العنيفة التي تنعت بالعولمة له مفعول على ما نحن بصدده. فما العولمة؟ إن حدها يختلف من شخص إلى آخر. فعند السياسيين ورجال الاقتصاد، إنها هيمنة الولايات المتحدة وهيمنة برصة نيويورك. وعند المثقفين إنها دخول البشر أجمعين في عالم الحاسوب والتواصل المستمر السريع. وعند من لا يرى بأسا بكل ذلك، إنها خطوة موفقة نحو توحيد صفوف الإنسانية. وعند من يرى السلبيات قبل الإيجابيات، إنها كارثة تهدد الهوية القومية والأصالة و فوائد الاختلاف. وينظر إليها البعض على أنها قوة قائمة الذات منطوية على الخير كله، مما يحمل البعض الآخر على النظر إليها وكأنها أخطبوط مستتر لا سبيل لضحياه وطرائده إلى الإفلات من أياديه الشرسة. مما لا يخلو كله لا من الخطأ ولا من الصواب، فيلزمنا بأن نستخرج القاسم المشترك من كل ذلك، فنقول بأن العولمة تيار تاريخي يرمي إلى ربط أطراف المعمور بما لم يسبق له نظير من الروابط الوثقى. وهل ذلك في صالح الإنسان أم في غير صالحه؟ و هل ستحمد عواقبه أم ستكون وبالا على الناس؟ فذلك ما لا يعلمه إلا علام الغيوب، فنترك التوقعات، ونتمسك بالواقع. وهو فيما نحن بصدده، أن العولمة تثبت ما قاله الفيلسوف الألماني كانط قبل قرنين من الزمان، بأن قلب الحركة التاريخية هو تاريخ تعمير الإنسان لهذه الكرة الأرضية[44]، وأن التواريخ المحلية إنما هي فروع أو شرايين تروى من ذلك القلب وترويه، مثلما يحصل في الدورة الدموية. ولذلك كتب طوينبي كتابه عن التاريخ الكوني. قال:" لماذا نكتب التاريخ؟ لماذا نهتم بغير ما يجري في عصرنا هذا في المكان الذي نقيم فيه؟ إننا نفعل ذلك لسبب يلزمنا اليوم بأن ننظر إلى التاريخ نظرة شمولية. فمنذ خمسمائة سنة، أصبحت مختلف جهات

(44) Kant, La philosophie de l'histoire, Paris, Denoel, 1947

الكرة الأرضية وما يحيط بها في تمام الاتصال بعضها بالبعض الآخر بفضل ما حصل من التطور الهائل في تقنيات التواصل"[45]. ولذلك صار الأوربيون يرومون كتابة تاريخ قارتهم من وجهة نظر أوربية شاملة وليس من وجهة نظر فرنسية أو ألمانية أو إنجليزية أو طاليانية. وغني عن البيان أن كتابة تاريخ الحربين العالميتين من باريس تختلف عن كتابته من برلين، لأن الذاكرة الوطنية الذاتية تذهب بالقلم إلى غير ما يذهب إليه لو مسك به مؤرخ فرنسي وآخر ألماني في آن واحد. ذلك بأن المنظور التاريخي كلما ترفع عن الذكريات إلا وازداد موضوعية وبصيرة وتسامحا. والعكس بالعكس، فكلما ساير المؤرخ الذاكرة، إلا وكان ملزما بامتطاء العواطف والحماسة والتحامل، شأنه في ذلك شأن من ينظر إلى التاريخ من الطائرة المحلقة في أعلى الأجواء ومن يمشي مكبا على وجهه تتصرف الطريق به أكثر مما يتصرف هو بها. بيد أن الإكثار من ركوب الطائرة خليق بأن يحيي في المرء حب العودة إلى المشي على الأقدام أو ركوب ما كان يركبه آباؤنا من الدواب. وذلك من باب ما وضعت الطبيعة عليه من الجدلية ومن باب وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. فإن التيار الرامي إلى لمّ شتات المعمور، هو التيار الرامي بالضبط إلى تأجيج الشعور بالذاتية والخصوصية. ولننظر مرة أخرى إلى مثال أوربا، فإنها تعود إلى الخصوصيات شبه القبلية في الوقت الذي تسعى فيه بخطى ثابتة رصينة إلى بناء كيان أوربي موحد، فيجري ذلك تارة بالتي هي أحسن مثلما حصل في تشيكوسلوفاكيا التي انقسمت إلى كيانين، أو يجري بالتي هي أسوأ تارة أخرى مثلما حصل في يوغوسلوفاكيا السابقة. وكذلك الأمر بالنسبة للاتحاد السوفياتي السابق الذي تشكلت منه كيانات متعددة لكل واحد منها ذكرياته الخاصة وتاريخه المختلف عما كان يكتب عنه من مركز أيام الاتحاد. ولا يمكن أن يسلم من هذا التيار أي قطر ولا أية قارة. ففي أمريكا الشمالية تتأجج الذاكرة الجماعية للمطالبة بمراجعة ما جرى من إبادة قبائل الهنود الحمر. وفي فرنسا تيار قوي للاعتراف بالثقافة المحلية السابقة سواء في إقليم بريطاني أو في جزيرة كورسيكا. وفي مجالنا المغاربي، مناطق شاسعة تتكلم بالأمازيغية، وهذه اللغة على اختلاف لهجاتها جزء لا يتجزأ من الهوية الوطنية، ولا يمكن كتابة التاريخ المغاربي بغض الطرف عنه.

(45) Toynbee, Arnold, A Study of History

وخلاصة القول إذن أن الذاكرة والتاريخ يتفقان في حفظ الماضي والعناية به واستحضاره، ولكنهما يفترقان في كيفية حفظه وطريقة العناية به ووسائل استحضاره. وسبب ذلك أن الماضي لا وجود له إلا في أذهاننا، فلا نستحضره إلا بما يحملنا على ذلك من قضايا الساعة التي نحن فيها. فإن نحن استحضرناه بالذاكرة، فلم يخل ذلك من انفعال وحماسة وخيال. وإن نحن استحضرناه بالبحث التاريخي، فإننا نرمي إلى إثبات الحقائق التي تنفي كل جدل. ولقد أحسن العالم الفرنسي تيودور مونو Théodore Monod عندما قال:"يقال إن التاريخ يساعدنا على فهم زماننا. ولعل الصحيح في الأمر هو أن يقال بأن زماننا هو الذي يساعدنا على فهم التاريخ"[46]، علما بأن الذاكرة هي المحرك والتاريخ هو الطريق السالك.

إبراهيم بوطالب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط

(46) ذكره Bédarida, François, في الكتاب الجماعي L'Histoire et le métier d'historien en France,1945-1995, Paris, 1995.